مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٢) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (2) 2021

الانتماء المكاني والمجتمعي في الشعر الأندلسي في القرن الخامس للهجرة

أ.د عيسى فارس*

د. وفاء جمعة**

أحمد سليمان علي***

(تاريخ الإيداع ٢١ /١٢ /٢٠٢٠. قُبِل للنشر في ١١/٢ /٢٠٢١)

□ ملخّص □

تحاولُ الدِّراسةُ الجاريةُ مسايرةَ الأساس الذي تقوم عليه الدراسات الفكريَّة والنَّفسيَّة للشعر الأندلسي؛ وهو الاستقرار على مجموعةٍ من المبادئ الفكريَّة التي تميِّز الحيِّز الثَّقافي الاجتماعي، والعاطفي الذي توجد فيه معظم النصوص الشِّعرية التي صدرت إلينا من القرن الخامس الهجري، وقد حدَّدت اتجاهها في متابعة مبدأ واحد هو (الانتماء)، وانقسمت بذلك إلى مجالين اثنين؛ هما: الانتماء إلى المكان الأندلسي، والانتماء إلى المجتمع الأندلسي؛ إذ يتابع البحث قضيَّة الانتماء المكاني في الشعر الأندلسي وفق البعدين الفردي والاجتماعي، والمقصود بالبعد الفردي الانتماء إلى المكان الأندلسي الخاص بالفرد الشاعر، أمَّا البعد الجمعي فهو الانتماء إلى المكان بوصفه وطناً جامعاً .

ويتابع قضيَّة الانتماء المجتمعي عبر مستويين اثنين؛ هما:

- مستوى التعبير عن الحركيَّة المجتمعيَّة الثقافية .
- مستوى التعبير عن نقاط التواصل بين التوجه الرسمي والتوجه الاجتماعي الشعبي .

الكلمات المفتاحيَّة : (الانتماء ، المكان ، المجتمع ، الشعر الأندلسي)

*أستاذ ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية، سورية

**مدرسة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية .

***طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٢) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (2) 2021

Spatial and societal affiliation in Andalusian poetry in the fifth century AH

DR. Eisaa Faris*
DR. Wafaa Jumea**
Ahmed Sulaiman Ali***

(Received 21/12 /2020. Accepted 11/2/2021)

□ ABSTRACT □

The ongoing study attempts to keep pace with the basis of the intellectual and psychological studies of Andalusian poetry; It is the stability of a set of intellectual principles that characterize the social and emotional cultural space in which most of the poetry texts issued to us from the fifth Hijri century are found, and it has been determined to pursue one principle (belonging) and thus split into two areas; They are: Belonging to the Andalusian place, belonging to the Andalusian community.

The research follows up on the issue of the spatial affiliation of Andalusian poetry according to the following dimensions:

– individual dimension: That is, belonging to the Andalusian place of the poet individual.

– the collective dimension: Belonging to the place as an inclusive homeland.

The issue of community membership is pursued across two levels; They are:

Level of expression of socio-cultural mobility .

The level of expression of points of communication between official orientation and popular social orientation.

Keywords: Spatial , societal , Andalusian poetry , affiliation.

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Lattakia, Syria

** Teacher , Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Lattakia, Syria.

***Doctoral student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدِّمة :

كلَّما تعمَّق الباحث في الشعر الأندلسي في مجموعة البنى الفكرية التي يقوم عليها هذا الشعر، التقط بعض الملامح على وجود انتماء شفَّاف في هذه البنى الأندلسيَّة، بوصفها الطابع الذي يميِّز بعض الشواهد الشعريَّة خصوصاً في فترة القرن الخامس الهجري، ويبدو أنَّ أهمَّ مجالين يعينان هذا الطابع على الاستمرار والوضوح هما (الدَّوال المكانيَّة، الدَّوال الاجتماعية).

تعدَّدت دراسات المكان في الشعر الأندلسي، وتعدَّدت الدراسات التي تابعت المجتمع الأندلسي، وتأثيره في الشِّعر الذي صدر في تلك البلاد، والزّمان الذي احتلَّته في التاريخ البشري، ومن تلك الدراسات ما تابع الشعر الأندلسي، ومفردات المكان، والمجتمع فيه بوصفه جزءاً من سياق الشعر العربي، ومنها ما استقلَّ بدراسته ، إلَّا أنَّ مجموع تلك الدراسات قدَّم لنا صورة شبه واضحة عن المكان الأندلسي، وتأثيره على الشعر، وسيرته الفكريَّة والنَّفسيَّة في (الأندلس)، كذلك المجتمع الأندلسي؛ بيد أنَّنا نحاول في هذا البحث استقصاء بعض النصوص بغية عرض الملامح التي توضِّح طبيعة التفكير لدى الشعراء الأندلسيين بوصفهم معبِّرين حقيقيين عن البنى الفكريَّة التي تميّز بها المواطن الأندلسي في ذلك الوقت في سياق الانتماء الذي يميِّز النماذج الشعرية في تلك المرحلة، ومن الدراسات التي سيفيد منها البحث كتاب (فلسفة المكان في الشعر العربي) للباحث (حبيب المؤنسي)، وكتاب (ماهية المكان لدى شعراء الجنوب) للباحث (عبد الرحمن حمادي)، وكتاب(في الأدب الأندلسي) للكاتب(جودت الركابي)، وكتاب (فجر الأندلس) للباحث (حسين مؤنس)، وسنستقي الشواهد الشعرية من بعض المصادر التي وصلت إلينا من (الأندلس) مثل كتاب(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسَّام الشنتريني، وكتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للمقَّري، ودواوين الشعراء المنتمين إلى هذه الفترة.

أهمية البحث :

يكتسب البحث أهمِّيته من تلك المحاولة لفهم بعض النصوص الشعرية بشكل جديد، يقوم على تتبُّع الخلفيَّة التي تنهض عليها فكرة الانتماء إلى الوجود المكاني، والوجود البشري الأندلسي؛ أي إلى الأندلسية بوصفها طابعاً مميّزاً لتلك النصوص؛ فنحن ندرس المكان وطبيعته في الشعر، وندرس العناصر الفكرية الممثلة لطبيعة المجتمع من دون ربط ذلك بمسألة مهمَّة هي إمكانيَّة كون تلك الدَّوال ملامح على انتماء الشعراء إلى بيئاتهم الفكرية والبشريَّة، ومن هنا يحدِّد البحث نفسه، ويضعها ضمن حلقة من حلقات قد تستمر وصولاً إلى فهم جديد للشعر الأندلسي، وهذا يحتاج إلى سياقٍ بحثيٍّ وزمنيٍّ متكامل.

منهجية البحث :

اعتمدت الدراسة منهجيَّة ضروريَّة هي تحديد النماذج الشعرية بوصفها شواهد، ثمَّ محاولة تحليل العناصر الفكريَّة الموجودة في تلك الشواهد والمتَّصلة بسياق الانتماء، وهذا استدعى اتباع المنهج الوصفي

الذي يعين الباحث على الاستقلال بالشاهد ومتابعته بالتفسير والمقارنة والرَّبط وصولاً إلى الاستنتاجات المُرْضِيَة .

المناقشة :

الانتماء لغةً هو الانتساب؛ يقال: ((انتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النَّسب))[١]، والانتماء في الاصطلاح هو الانتساب إلى أمرٍ معيَّنٍ فكراً، وتُجسِّده الجوارح عملاً[٢]، وقد سعى الإنسان منذ القدم إلى إصدار القوانين التي تحدد طبيعة انتمائه إلى المكان الذي ولد فيه وعاش؛ فالمكان في هذا السياق رقعة الأرض التي هي ركن من الأركان التي يقوم عليها الوطن، كذلك يُعَدُّ الانتماء من أهمِّ العوامل التي تؤدِّي إلى بناء المجتمع؛ فهو يخلق منظومةً من الأفكار التي هي بمنزلة الضوابط لعملية التفاعل بين الفرد والمجتمع.

وعليه فإن التراكم الموضوعي لمسألة الانتماء متصلٌ بأمرين اثنين هما:

-الانتماء إلى المكان.

-الانتماء إلى المجتمع.

فالمكان هو الصيغة الإجمالية للعواطف الفردية المنسابة ؛ بمعنى أنَّه كلَّما زاد التعلُّق به، والتعبير عن هذا التعلق زادت التراكمية النفسية الجمعية في هذا الشعر ما يشكِّلُ بُعداً موضوعيَّاً واضحاً فيما بعد.

والمجتمع هو الصيغة الإجمالية للأفكار والقوانين الجمعية المُتَّفق عليها من قبل الأفراد المكوِّنين لتلك الصيغة ، وعليه فالشاعر يعمل ضمن هذه المساحة المشتركة، ويعبِّر عنها.

أولاً : الانتماء المكاني :

أخذ الحديث عن المكان في الشعر العربي أبعاداً متنوعة ؛ بحسب زوايا الرؤية التي عالجته من جهة، والفهم الذي أنيط به من جهة ثانية[٣]، ويشتمل الحديث عن الانتماء المكاني في الشعر الأندلسي في القرن الخامس للهجرة على اتجاهين مُهمَّيْن يتلخصان في الانتماء إلى المكان الأندلسي الخاص بالشاعر الفرد، والانتماء إلى المكان الأندلسي بوصفه وطناً جامعاً، والنَّاظم الواضح للنماذج الشعرية الموجودة لدينا في هذا السياق هو الانتقال بهذا الانتماء من مجال التعبير النفسي إلى مجال الرؤية الموضوعية؛ فلم يعد المكان، في تشكيل القصيدة لدى الشاعر الأندلسي، ذلك البعد الجغرافي بطولٍ، وعرضٍ، ومساحةٍ بقدر ما أصبح له بعدٌ تجريديٌّ يتحوَّل فيه إلى عالم فسيحٍ مليء بالرؤى، والذكريات، والخيالات، والمكان بذلك ((يظهر بكلِّ تفصيلاته بهذا الشعر كقوة قادرة على تلخيص تاريخ الحالة ، وعلى الاحتفاظ بمعانٍ وتشكيلات لا توجد في سواها، وعلى قدرتها على إعطاء هذا الشعر طاقةً متميزة)). [٤]

إنَّ المكان بوصفه مجالاً حيوياً للانبعاثات النفسية في الشعر يحمل في تلك الانبعاثات والذبذبات توصيفاً موضوعياً للعلاقة الانتمائية بين الشاعر والمكان؛ فالتمسُّك بالمكان آيةٌ على انسياقٍ فكري من قبل الشاعر يتراكم مع مرور الزمن ليحول المكان إلى موضوعٍ معاينٍ؛ بمعنى أن يتحول المكان إلى فكرة ذهنية تنشأ عن انقطاع خارجي أو

---

[١] ابن منظور، جمال الدين . لسان العرب . ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ج ١٥ ، ص ٣٤٢ .

[٢] بدران ، عمر سليمان . هكذا يكون الانتماء للوطن .ط١ ، مطبعة الدروع ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٥ .

[٣] مؤنسي ، حبيب . فلسفة المكان في الشعر العربي . د.ط ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٣م ، ص ١٣٠ .

[٤] حمادي ، عبد الرحمن . ماهية المكان لدى شعراء الجنوب . مجلة الباحث ، الجزائر ، العددان الثاني والثالث،١٩٨٢م ، ص ٢٧٧ .

معتزم ، وهذه الفكرة تتراكم على شكل مجموعةٍ من العناصر الوجودية تشكِّل الموضوع المختلف بفعل ارتباط الشاعر الشديد بالمكان، وتمسُّكه به، وبذلك نلمح بين تلك الانفعالات والذبذبات قيماً اجتماعية، وقومية بحسب السياق الشعري الفردي، وهي إمَّا أن تكون قيماً إيجابية، وإمَّا أن تكون قيماً سلبية تشكِّلُ الموضوع المعتزم في مجموعها؛ وبذلك يتحوَّل المكان إلى أن يكون قرين الرؤية الاجتماعية لدى الشاعر؛ ومن ماأشار إليه الشاعر (ابن اللبانة) في رثائه (آل عباد) حين استدعى بعض الأمكنة الخاصة بقيمهم ، بوصفها مجالاتٍ للتوجهات الموضوعية في وجودهم الحركي المندثر، يقول:[١](البحر البسيط)

عريسةٌ دخلتها النائبات على أساودٍ لهمُ فيها وآسادِ

وكعبةٌ كانت الآمال تعمرها فاليوم لا عاكف فيها ولا بادِ

فالآمال كانت تملأ ديار (بني عباد) الذين جعلوا من دولتهم كعبةً يقصدها الناس تودداً أوإيماناً .

ونجد أنَّ الشاعر الأندلسي يستقر في المكان الأندلسي استقراراً يلوح ببدايات تشكل الروح القومية؛ فبعض الشعراء تساموا في عشق أمكنتهم حتى فضَّلوها على الأمكنة العظيمة في المشرق، المشرق الذي كان كعبة الآمال والأحلام في السابق، يقول (ابن عبدون):[٢](من البحر المتقارب)

عذيري إلى المجد من كون مثلي بآنةَ أو من مبيتي بلبِّ

و بغداد لو هتفت بي هلمَّ هلمَّ لَمَا كنت ممَّنْ يلبِّي

فالشاعر استقر مكانياً حتى تحول (وادي آنة) إلى موضوعٍ وطني لا تستطيع جاذبية (بغداد) نزعه من ذهنه، وذلك بعد وضوح تجربته العاطفية فيه، ولم تعد أجمل المدن المشرقية تدعوه لترك أندلسه، وهذا ما نجده لدى الشاعر (ابن الحدَّاد) الذي يؤكد أن أكثر من مدينة مشرقية حاولت إغراءه ، لكنه لا يرى في نفسه إلا وطنه الذي بات جزءاً من كيانه الفكري والنفسي، يقول :[٣] (من البحر الطويل)

وكم خطبتني مصر في نيل نيلها ورامت بنا بغداد ورد فراتها

ولم أرَ أرضاً غير مبدأ نشأتي ولو لحت شمساً في سماء ولاتها

ونلاحظ أنَّ التفاعل بين الشاعر والمكان تجاوز البعد العاطفي إلى بعدٍ فكري واعٍ بشكلٍ واضحٍ وجلي؛ فهو يقول عن مكانه الأندلسي موصِّفاً إيَّاه بأنَّه ((مبدأ نشأتي)) ، وهذا توصيفٌ فكريٌّ يؤكد بداية تشكل العناصر الموضوعية الأولى للروح القومية في الشعر الأندلسي.

وقد يرفض الشاعر مجموعة القيم الاجتماعية التي تسيء إلى المكان الحبيب إلى قلبه في سياقٍ من إعادة التوجيه الموضوعي للبنى الفكرية القائمة في المكان، وهنا يصبح الشاعر جهازاً إعلامياً قومياً ينقد

---

[١] المقّري ، شهاب الدين أحمد بن محمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق إحسان عباس . ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦م، ج ٤ ، ص ١٢٤.

[٢] الشنتريني ، أبو الحسن علي بن بسام . الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبّاس . ط٢ ، دار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس، ١٩٨١م، ج ٤ ، ص٧١٢ .

[٣] ابن الحداد، أبو عبد الله محمد بن أحمد. ديوان ابن الحداد الأندلسي ، تحقيق يوسف علي طويل . ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ١٩٦٠م ، ص ١٦٧ – ١٦٨.

المجتمع ، ويؤصل للصيغة الوطنية اللازمة ؛ فالشاعر (ابن الدَّباغ) يرسل إلى (المعتمد بن عباد) معاتباً فيقول : [١](من البحر المتقارب)

يُهان بحمص عزيز الرجال ويعزى إليهم قبيح الفعال

ويغرى ذوو النقص من أهلها بتلطيخ أعراض أهل الكمال

وشبيه بذلك ذم (السميسر بن خلف) الفكاهي للمرية ، وتوجيهه السخط عليها بسبب ما حلَّ بها من الدناءة، فيقول : [٢](من البحر المجتث)

قالوا: المرية فيها نظافة قلت: إيه

كأنها طست تبر ويبصق الدم فيه

نلاحظ أنه شبهها بطست من الذهب ؛ أي أنها مستقرة بوصفها المكان صاحب القيمة الفضلى في قلبه وذهنه، ولكنه متذمر من القيم الاجتماعية التي تحكمها.

وقد استخدم بعض الشعراء كلمة (وطن) في تعبيرهم عن الأماكن التي تخصهم ؛ فصار المكان الخاص وطناً صغيراً ضمن إطارٍ وطني كبيرٍ هو (الأندلس) ، ومن هؤلاء الشاعر (ابن زيدون، ابن حمديس، المعتمد بن عباد، عز الدولة بن صمادح) ، وكان أغلب شعرهم الذي استخدم هذه الكلمة في سياق الحنين، كذلك نجد نماذج شعرية أندلسية في القرن الخامس تشير إلى (الأندلس) عامة بوصفها وطناً، وإنَّ ذكر (الأندلس) وحده في الشعر دليلٌ على استقرار مفهومها الوطني في أذهان الشعراء ؛ فهي المكان الجامع لمدنهم العزيزة على قلبهم؛ وقد ذكر بعض الشعراء (الأندلس) في معارض أحاديثهم التي تناولوا فيها المفترقات التاريخية الكبرى ناقرين على الوتر القومي؛ وهذا ما نلمسه لدى الشاعر (ابن العسال) في التهكم المؤلم الذي صاغه أبياتاً كانت ردة فعلٍ على سقوط (طليطلة) بيد أعدائها الأوروبيين، فإذا ذهب الجزء لسع ألمه الشاعر المؤمن بالأندلس الوطن، والخائف عليها من الضياع، يقول :[٣](من البحر البسيط)

يا أهل أندلسٍ حثُّوا مطيَّكم فما المقامُ بها إلَّا من الغلطِ

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

ونشهد في القرن الخامس للهجرة تفوق الأندلسيين في شعر الطبيعة ، وهو دليلٌ على استقرار المفهوم المكاني والانتماء له في الذهنية الأندلسية من جهة، وفي النفس الشاعرة بعمقها الوجداني وتعبيراتها الموضوعية من جهة ثانية؛ فتفوق الأندلسيين في شعر الطبيعة، وقدرتهم على التعبير عنها، والاستغراق فيها إلى حد التماهي بها، وتماديهم في إغداق المدح عليها، كذلك الثناء على وجودهم بها يؤكِّد أن السياق الموضوعي الذي تجري به النماذج الشعرية الطبيعية هو سياقٌ انتمائيٌّ وطنيٌّ يتجاوز في بعضه الشغف بالمكان؛ فالشاعر (ابن خفاجة) ينادي أهل (الأندلس) سكان هذا المكان الرائع، ويدعوهم إلى الاعتزاز بوطنهم وطبيعته ، ويؤكد أنه لا يمكن له إلا اختيار (الأندلس) مكاناً نهائياً له ، يقول :[٤](من البحر البسيط)

---

[١] الشنتريني ، ابن بسام . الذخيرة . ج٢ ، ص ٧١٤ .

[٢] الشنتريني، ابن بسام. الذخيرة . ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

[٣] المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . ج٤ ، ص ٣٥٢ .

[٤] ابن خفاجة،إبراهيم بن أبي الفتح . ديوان ابن خفاجة. تحقيق(عبدالله سنده)، ط ١ ،دارالمعرفة، بيروت،٢٠٠١ م. ،ص٢٣ .

يا أهلَ أندلسٍ لله درَّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ
ماجنةُ الخلْدِ إلا في دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت أختارُ
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النارُ

ثم نجده في تعبير شعري آخر يؤكد تماهيه بالأندلس، وذلك في قوله:[١](من البحر الرمل)

إنَّ للجنة في الأندلسِ مجتلى حسنٍ وريًّا نفس
فسنا صبحتها من شنبٍ ودجى ظلمتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صباً صحت واشوقي إلى الأندلس

لقد نظر الشعراء الأندلسيون إلى (الأندلس) بوصفها المكان الأجمل والأرقى، والوطن الذي لا يضاهيه وطن، وكثيراً ماردد المثقفون الأندلسيون كلمة (أندلسنا) ، ونلاحظ أن تعلق الشاعر الأندلسي بالمكان كان ضمن سياقين اثنين، هما:

- سياق الارتباط بالمكان الخاص به ؛ فهو ينتمي للمكان الذي يخصه بوصفه الفرد.
- سياق الارتباط بالأندلس بوصفها المكان الذي يخصه بوصفه الجزء من الجماعة.

وهذان السياقان يشكلان بداية تبلور روح الانتماء؛ فالشاعر نظر نظرة كلّيّة رأى فيها أن (الأندلس) هي المجموع الوطني للعناصر الوجودية التي ينتمي إليها سواء أكان ذلك ضمن مجالٍ إيجابي أم مجالٍ سلبي كما لاحظنا، وتمتلئ صفحات الدواوين الشعرية الخاصة بشعراء تلك المرحلة، كذلك المصادر القديمة التي تحدثت عن (لأندلس) بالشواهد الشعرية التي تتحدث عن ارتباط الشاعر الأندلسي بمعاهد حياته؛ فوجودها ضمن سياق موضوعي نظر إلى(الأندلس) بوصفها الوطن يشكِّل معلماً مهماً من معالم الانتماء المكاني في هذا الشعر.

ثانياً: الانتماء الاجتماعي :

الشعر صورةٌ من صور المجتمع التي تعبر عنه، وتلخص المجموع الفكري، والنفسي لأفراده ومكوناته، وإذا كان الشعر يعبِّر عن المجتمع فإنَّه يعبِّر له في كثير من الأحيان؛ فهو ضرورة الشاعر النفسية، وضرورته الجمعية بوصفه فرداً فاعلاً على المستوى القيمي المشكل للرؤى الموضوعية في مجتمعه؛ فالشاعر يملك القدرة على ربط الماضي بالحاضر، والكشف عن مجموعة البنى الفكرية التي تعبِّر عن روح الأمة، أو المجتمع، وهذا إن أحالنا إلى مبدأ الالتزام في الشعر كما أسس له المذهب الواقعي موضوعياً في العصر الحديث، فإننا لا نجد نماذج شعرية أندلسية في القرن الخامس تنحو هذا النحو الموضوعي في السياق الشعبي إلا يسيراً ، و الالتزام الموضوعي لدى الشاعر الأندلسي كان في كلاسيكيات الشعر العربي مثل موضوعي المديح والهجاء وغيرهما ، أمَّا في سياق الرؤية الموضوعية الاجتماعية فنشهد بعض الانحرافات التي يمكن أن نعدها تجديداً؛ مثلما نلمس في موضوعات الرثاء والوصف الطبيعي وغيرهما من السياقات الموضوعية، بيد أن الحديث هنا يأخذنا إلى ناحيةٍ أخرى تتشكل بداياتها من الفكرة السابقة لمبدأ الالتزام؛ فالشاعر يعيش تجربة مجتمعه، ويتفاعل معها، ويكون شعره بذلك محصلة للوعي الاجتماعي، وهذا يحيلنا على مبدأ الصدق في التعبير الموضوعي عن

[١] ابن خفاجة. الديوان . ص ١٧٨ .

المجتمع أكثر منه الالتزام؛ فالانتماء الاجتماعي لا يتصل بالضرورة بالالتزام، خصوصاً الشعر الأندلسي الذي افترق في القرن الخامس إلى توجهين: توجه شعبي، وتوجه رسمي، وكانت أغراضٌ مثل المديح والهجاء وغيرها نصيرةً للتوجه الثاني، وأغراضٌ مثل الغزل والرثاء والطبيعة وغيرها نصيرةً للتوجه الأول، وبذلك فإن الأدب الصادق لا ينعزل عن المجتمع بطبيعة الحال.

بناءً على ما سبق فإن الانتماء الاجتماعي يتشكل عبر مستويين اثنين هما:

-مستوى التعبير عن صورة المجتمع وحركيته الفكرية ؛ ومنه تنشأ بعض الفنون الشعرية التي تلتزم بالمستوى الشعبي وذوقه .

-مستوى التعبير عن نقاط التواصل بين التوجه الرسمي، والتوجه الاجتماعي، وهذا يظهر في بعض النماذج الموجهة شاقولياً من الشاعر بوصفه الجهاز الشعبي الإعلامي إلى السلطة التي هي صاحبة المصير الاجتماعي بنهاية الأمر، كذلك في بعض النماذج التي عبرت عن المصير الاجتماعي بفعل سوء تعامل السلطة وتغرّبها عن المجتمع.

لقد تألف المجتمع الأندلسي من عناصر تختلف اختلافاً تامًّاً عن عناصر مجتمع آخر في المشرق؛ فمن المنطقي أن تختلف طبيعة الحركية النفسية والفكرية فيه، لذا فمن المنطقي أن تختلف الطبيعة الموضوعية للشعر، والسؤال هنا عن الشعر إذا كان صادقاً في التعبير عن هذا الاختلاف ، فهل هي معالم على وجود هوية لهذا الشعر؟

الجواب: نعم ؛ لأن ذلك التوجه دليل على اتصال بين الشعر والمجتمع نعبر عنه بأنه انتماء.

إن أهم العناصر التي كوَّنت المجتمع الأندلسي هي العرب والبربر والموالي والإسبان والمولدون والصقالبة والنورمان والفايكنج واليهود، وقد كان التفاعل بين هذه العناصر ممتداً عبر قرون، مما أدى إلى طبيعةٍ اجتماعية مختلفة عن المشرق، ووصل التفاعل إلى مستوى اختلاط الدم؛ يقول الدكتور(جودت الركابي) في كتابه (في الأدب الأندلسي) : ((ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين على إثر الاختلاط والزواج، ولم يبق بين أكثر العرب ما لا يجري في عروقه دمٌ إسباني)).[١]

لقد وصل المجتمع الأندلسي إلى مستوى من التفاعلية بين عناصره صرنا نسمع عن طريقها في الشعر بكلمة (أندلسي) للتعبير عن الفرد المواطن أكثر منه مولداً، أو نورمان، أو غيرهما، وإذا حيَّدنا التوجهات الدينية الحادة في (الأندلس) فإنَّنا نكاد لا نعثر على اتهاماتٍ عنصرية بين أبناء المجتمع الأندلسي، ويشير الباحث (حسين مؤنس) إلى أنَّ اسم المولدين نفسه غاب عن الساحة الشعرية في نهاية القرن الثالث للهجرة يقول:((وقد ظل اسم المولدين يطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت هذه التسمية بسبب اختلاط الناس وتحول أهل الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز)).[٢]

لقد كانت العروبة واجهة الدولة ، إلا أن الأندلسية بوصفها الطابع الاجتماعي يعود الفضل فيها إلى تفاعلٍ آخر بعيد عن التوجه الرسمي؛ وهذا يفسر ظهور فنونٍ شعريةٍ غريبةٍ على غير (الأندلس) مثل (الموشحات والأزجال)؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أن المجتمع الأندلسي اتسم بالتوجه الشعبي، حتى إنَّنا نجد فقرةً في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشرقة (زيغرد هونكه) بعنوان (شعبٌ من الشعراء)، وقد انتشر الشعر بكل ضروبه وأصنافه بين الشعب انتشار النار في الهشيم ، وليس من الضرورة أن يكون كل هذا الكم عربياً صرفاً، ويروي (ياقوت الحموي) عن

---

[١] الركابي، جودت . في الأدب الأندلسي . ط٥، دارالمعارف، القاهرة ، ١٩٨٠م ،ص٣٥.

[٢] مؤنس، حسين . فجر الأندلس . د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص ٤٢٥ م .

أهل مدينة (شلب) أنَّه ((قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأي معنى طلبت منه)). [١]

والسؤال هنا هل سيقول هذا الفلاح على سبيل المثال شعراً بسيطاً يعبر عنه وعن طبيعته أم سيحاول تقليد المعلقات و أشعار(المتنبي)؟

لقد كان الشعر الشعبي في (الأندلس) صورةً حيوية عن المجتمع، وتفاعلاته التاريخية البعيدة نوعاً ما عن التوجه الرسمي، ومن أكثر المعالم هي ظهور الموشحات ثم ظهور الأزجال، وهي فنونٌ أندلسيةٌ واضحة نهج أهل (الأندلس) طريقتها، ووضعوا حقيقتها .

لقد كُتِبَ كثيرٌ من الخرجات في الموشحات باللهجة العامية الأندلسية، وهي لغة كانت منتشرة في الأوساط الاجتماعية جمعت كلماتٍ مختلطةً من لغات العناصر الاجتماعية التي كونت المجتمع الأندلسي، وهذا يشير إلى أهمية الاتصال بين الأسلوب الشعري ، والذوق الشعبي في (الأندلس) ، ومن ذلك قول (الأعمى التطيلي) في إحدى خرجاته :[٢]

حبيبي اعزم وقم واهجم وقبِّلْ فم واجي وانضم

إلى صدري وقم بخلخالي إلى إقراطي قداشتغل زوجي

يتلخص المعنى بأنه دعوة لممارسة الحب الجسدي، فالحبيبة تدعو حبيبها إلى تقبيلها، وضمِّها، وغير ذلك من مشاهد المتعة الحسية، وهي لغةٌ عامية مال إليها الذوق الشعبي في (لأندلس)، وسيتطور توظيفها لينشأ فنٌّ كامل يعتمدها في الشعر هو (الزجل)، وربما كان ميل المجتمع الأندلسي إلى الغناء والموسيقى أرهص لهذا المسار؛ فقد ولع الأندلسيون بالغناء والموسيقى خصوصاً في القرن الخامس للهجرة، وصار الغناء والموسيقى جزءاً من كيان معظم أهل (الأندلس) من مختلف طبقاتهم، وقد ذكر (أبو بكر الطرطوشي) أنهم في أوساطهم الشعبية كانوا يقرؤون القرآن بالألحان، والرقص بالأرجل، والتصفيق بالأيدي، ويشير إلى أنهم جعلوا لكل لحنٍ من ألحانهم في القرآن اسماً مخترعاً، يقول : ((ومن ذلك الرهب : أن نظروا إلى كل موضع في القرآن فيه ذكر المسيح ؛ كقوله تعالى: ((إنما المسيح عيسى ابن مريم))، وكقوله تعالى: ((إذ قال الله يا عيسى ابن مريم)) ، فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة في الكنائس ،ومن ألحانهم في القرآن: النبطي، والرومي، والحساني، والمكي، والإسكندراني، والمصري، والكاروندي، والراعي، والديباجي، والياقوتي، والعروسي، والزرجون، والمرجي، والمجوسي، والزنجي، المنمنم، والسندي، وغيرها؛ كرهنا ذكر التطويل بها)).[٣]

وهذا النص وإن كان يشير إلى مدى تعلق الأندلسيين بالغناء والموسيقى فإنما يشير، أيضاً ، إلى مدى التجانس بين العناصر الدينية في المجتمع الأندلسي، ومن هنا يمكن لنا فهم اهتمامهم بلهجتهم العامية وألحانهم الشعبية في موشحاتهم وأزجالهم.

وقد عبَّر الأندلسيون عن بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في المأكل والملبس والأعياد والمناسبات، ومجالس الشرب ، كذلك المهن والحرف، ونجد ذلك في أثناء الحديث في موضوعات معينة مثل الحب أو

---

[١] الحموي ، ياقوت . معجم البلدان . ط ١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥م ، ج٣ ، ص ٣٥٨ .

[٢] التطيلي ، الأعمى . ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عبَّاس . د.ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م ، ص ٢٥٦ .

[٣] الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد . الحوادث والبدع ، تحقيق علي بن الحسن الحلبي . ط٣ ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية ، ١٩٩٨م ، ص ٨٦ .

الحنين أو الاعتزاز، ويشير الشاعر (ابن الحداد) إلى عادة اجتماعية هي لبس اللون الأبيض في وقت الحداد، وهو يفتخر بتلك العادة الأندلسية، ويؤكد أنها عادة صائبة، ثم يأتي بقرينة من الحياة على ذلك ليجمِّل الأمر، يقول: [١](من البحر الوافر)

إذا كان البياض لباس حزني بأندلسٍ فذاك من الصوابِ

ألم ترني لبسْتُ بياض شيبي لأني قد حزنْتُ على شبابي

وقد جمع الباحث (محمد مولود خلف المشهداني) في كتابه (الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف) كثيراً من النماذج الشعرية التي تعبِّر عن المجتمع الأندلسي.

ونجد مستوى آخر من الانتماء الاجتماعي في الشعر الأندلسي في القرن الخامس للهجرة يتحرك الشاعر فيه بوصفه المعبِّر عن مجتمعه أمام التقلبات المصيرية والتاريخية التي سببتها التقلبات السياسية؛ فقد عبر الشاعر الأندلسي عن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي شهدتها بلاده ، وكانت الحياة الاجتماعية في القرن الخامس للهجرة قد طبعت بطابع الضنك والقلق المتصلين بفعل الحروب والحوادث والفتن، كذلك بفعل مكابدات الدولة من غارات الأوروبيين المستمرة، وتابع الشاعر (السميسر بن خلف) ما آلت إليه أوضاع وطنه الأندلسي حين ضاعت مفاتيح التوحيد الاجتماعي، وهي برأيه تتلخص في الالتزام الأخلاقي الديني ، والالتزام الاجتماعي، يقول موجهاً خطابه لقادة بلاده :[٢](من البحرالوافر)

رجوناكم فما أنصفتمونا وأمَّلناكم فخذلتمونا

سنصبر والزمان له انقلابٌ وأنتم بالإشارة تفهمونا

فهو غيورٌ على بلاده، ومتألِّمٌ لما أحدث حكامها بها، ويسوِّغ الخروج عليهم؛ لأن الالتزام الاجتماعي يدفعه إلى الوقوف إلى جانب الناس الذين سيدفعون ثمن فشل قادتهم، يقول معبِّراً عن ذلّهم وبُعدهم عن الناس: [٣]

خنتم فهنتم وكم أهنتم زمان كنتم بلا عيون

فأنتم تحت كل تحتٍ وأنتم دون كل دون

فهو يشير إلى انقلاب الزمان ممنياً النفس بعودة الاستقرار الاجتماعي الذي ضيَّعه القادة، وقد صدر في هجائه عن دافعٍ وطني أصيل، وإذا كان هجاؤه يعبر عن نظرة ذاتيةٍ دينيةٍ فإنه يعبّر عن وجهاتٍ أعمّ تتلخَّص في تحوّله إلى الصوت الغاضب، الصوت الذي توجه ضد السلطة السياسية، ومهما كان منطلقه فهو في الخط المواجه للسلطة، وعليه فهو في خط الشعب.

ويشير أحد الشعراء المجهولين إلى دور الحكام الأندلسيين في ضياع قطعة أندلسية كان سقوطها بمنزلة سلخ أحد أعضاء الجسم منه ، يقول : [٤](من البحر الكامل)

---

[١] ابن الحداد، أبو عبد الله . شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي ، جمع وتحقيق وتقديم منال فيزل . د.ط ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، ١٩٨٥م ، ص ١٤ .

[٢] الشنتريني ، ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ج٢ ، ص ٨٨٥ .

[٣] الشنتريني ، ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ج٢ ، ص ٨٨٦ .

[٤] المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . ج ٤ ، ص ٤٨٥ .

وقيل : تجمَّعوا لفراق شملٍ طليطلةٌ تملّكها الكفورُ

كفى حزناً بأنَّ الناس قالوا: إلى أين التَّحوُّل والمسيرُ؟

أنترك دورنا ونفرُّ عنها وليس لنا وراءَ البحر دورُ؟!

وقد وقف الشعراء على مدنهم الراحلة التي سقطت الواحدة تلو الأخرى، وراحوا يعبّرون عن الظروف الاجتماعية التي حدثت بفعل هذه التقلبات الوطنية الهائلة والمريعة، وقد تابع الشاعر(ابن العسال) سقوط (بربشتر) ثم استردادها، فصوَّر ما لاقاه أهل المدينة من عنْت (النورمانديين)، يقول:[1](من البحر الكامل)

كم موضعٍ غنموه لم يُرْحَمْ به طفلٌ ولا شيخٌ ولا عذراءُ

ولكم رضيع فرَّقوا من أمِّه فله إليها ضجة وبغاءُ

ولربَّ مولودٍ أبوه مجندلٌ فوق التُّراب وفرشه البيداءُ

لقد كان هذا التفاعل دليلاً مهماً على نمو الروح الوطنية، والحس الوطني العالي لدى الشعراء.

كان الشعر في القرن الخامس للهجرة صورةً لمجتمعه، وقد عبَّر عن انتمائه له مثلما لمسنا، وهذا الانتماء يثير توجهاً بحثياً نحو تقصِّي مجموعة البنى الفكرية التي شكَّلت هذا السياق الموضوعي، ويتأسس هذا التوجه على فكرة مثيرة مفادها أن الشعر الأندلسي لو كتب له الاستمرار في أن يكون مرآة مجتمعه حتى يصل إلى حد التماهي، وهكذا كان لولا مجيء المرابطين وتأكيدهم التوجه الرسمي نحو المشرق، فكراً وروحاً، فإنَّه كان بإمكاننا أن نشهد ولادة هويةٍ شعريةٍ ناضجةٍ تماماً في القرون اللاحقة للقرن الخامس للهجرة؛ لأن انتصار الحركية الاجتماعية يتبعه ثورةٌ في الشعر على ما أكده التوجه الرسمي، وكان يمكن لنا أن نضع أيدينا على أطرٍ موضوعية أخرى؛ فاستقرار مجتمع يتكوَّن من العناصر التي ذكرناها سيؤثِّر على التوجُّه السلطوي نفسه، إلا أن هذا المجتمع لم يستقر، وعاش القلق المستمر بسبب عدم اتزان قادة مصيره ، وتبنِّيهم الدائم الحرب الثقافية الدينية والسياسية ، كذلك الحرب العسكرية مع الأوروبيين، وهذا انعكس في الشعر إصراراً عفوياً على العمل بين مساحة التجديد والتقليد.

الخلاصة :

يجد البحث نفسه قريباً من الفكرة التي تقول إنَّ مجموع الشواهد والخط الناظم في تحليلها يشكِّل بروزاً لانتماءٍ وجودي مشترك؛ فليست تجربة انتماء كل شاعر تقوم على أسس نفسية خاصة وحسب؛ إنما تشابهت المبادئ الفكرية للحضور الشعري الجمعي، وارتباط الشاعر الأندلسي عموماً بالمكان الأندلسي، كذلك اهتمامه بقضايا مجتمعه ممَّا يفيد بوجود تأصيل واضح للشخصية الأندلسية وتوجهاتها في تلك الشواهد عن طريق التعبير عن روح الحياة الأندلسية وطبيعتها، والأسس التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية مرتبطة بالزمان

[1] الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله . الروض المعطارفي خبرالأقطار. تحقيق إحسان عباس . ط٢ ، مؤسسة ناصرللثقافة ، طبع في مطابع دارالسَّرَّاج في القاهرة ،١٩٨٠ ، ص ٩٠ .

والمكان، ومن هنا فإنَّه لابدَّ من تضافر البحوث في هذا الاتِّجاه للوصول إلى آراء ناضجة في هذا المجال من الدراسة ممَّا يمهِّد الطريق للدراسات القادمة .

المصادر والمراجع:

- *القرآن الكريم*

١- ابن الحداد، أبو عبد الله . *ديوان ابن الحداد الأندلسي* ، تحقيق يوسف علي طويل . ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ١٩٦٠م

٢- ابن الحداد ، أبو عبد الله . *شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي* ، جمع وتحقيق وتقديم منال فيزل . د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

٣- ابن خفاجة، إبراهيم بن أبي الفتح . *ديوان ابن خفاجة* ، تحقيق) عبد الله سنده(ط ١، دار المعرفة ، بيروت، ٢٠٠١ م .

٤- ابن منظور، جمال الدين . *لسان العرب* . ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٣م .

٥- أبو عبد الله ، عماد الدين الكاتب . *خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب والأندلس ، تحقيق(آذرتاش آذرنوش) نقحه وزاد عليه (محمد المرزوقي ، محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى).* د. ط ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧١م.

٦- بدران، عمر سليمان. *هكذا يكون الانتماء للوطن*. ط١، مطبعة الدروع، القاهرة ، د. ت.

٧- التطيلي ، الأعمى . *ديوان الأعمى التطيلي* ، تحقيق إحسان عبَّاس .د.ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م.

٨- حمادي ، عبد الرحمن . *ماهية المكان لدى شعراء الجنوب* . مجلة الباحث ، الجزائر ، العددان الثاني والثالث،١٩٨٢م.

٩- الحموي ، ياقوت . *معجم البلدان* . ط ١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥م .

١٠- الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله . *الروض المعطار في خبر الأقطار* . تحقيق إحسان عباس . ، ط٢ ، مؤسسة ناصر للثقافة ، طبع في مطابع دار السَّرَّاج في القاهرة ، ١٩٨٠.

١١- الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . ط ٥ ،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م.

١٢- الشنتريني ، أبو الحسن علي بن بسام . *الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبّاس* . ط٢ ، دار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٨١م .

١٣- الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد . *الحوادث والبدع* ، تحقيق علي بن الحسن الحلبي. ط ٣ ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية ، ١٩٩٨م .

١٤- مؤنس ، حسين . *فجر الأندلس* .د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

١٥- مؤنسي ، حبيب . *فلسفة المكان في الشعر العربي* . منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٣م.

١٦- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد . *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق (إحسان عبَّاس) ، ط١، دارصادر، بيروت،١٩٧١ .